لماذا تأخر المسلمون وتقدم غيرهم ؟!!

جدلية النهضة والتخلف في الفكر الاسلامي

(دراسة فكرية مقارنة)

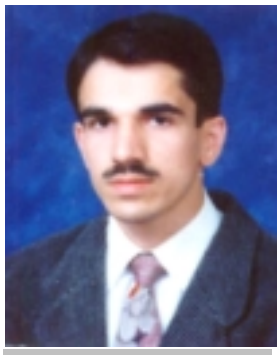

سعد صهيب خضر
saad76@yahoo.com

القسم الاول

إن المجتمع الإسلامي المعاصر في حاجة إلى دراسة التاريخ الإسلامي لاستخلاص التجارب الفكرية، واستشراف الأبعاد الحضارية، وانتزاع الصور المشرقة، واستجلاء الملامح الساطعة من خلال منظورات التاريخ الإسلامي.. وإن نظرة على واقع المجتمع الإسلامي الأول تطلعنا على جوانب مشرقة من هذا الدين العظيم، وتتجلى لنا من خلالها صورة المجتمع الإسلامي بوضوح، ذلك المجتمع الذي كان يدور مع فلك الاسلام؛ ويستلهم تجلياته الفكرية والمعنوية، وكان جيل التأسيس يستقي من المصدر الأول للوحي وهو القرآن! فكان كتاب الله، يربي النفوس وينشىء الأجيال، ويرسم خطى الناس، ويؤسس عقولهم بما يتفق والمنهج القرآني.. ومن هنا ظهر جيل واع ومتميز؛ دشن قيم المساواة والعدالة والتسامح في ضمير المجتمع – الذي كان يئن تحت هيمنة النظام القبلي؛ الذي أهان كرامة الإنسان وعذب وجدانه– وبشر بميلاد مجتمع جديد في قيمه وتصوراته؛ حرر الإنسان من نير الإستعباد ومهانة الإستذلال..

والسؤال المطروح في هذا السياق: ولكن لماذا لم يتكرر هذا (الجيل الرشيد) في هذه اللحظة التاريخية الراهنة، الجيل الذي تفرد في تصوره وتسامى في سلوكه، وفاق في ايمانه، وغير مجرى التاريخ، وأحدث نقلة حضارية جبارة، وانتشل الإنسان من وهدة الظلامية والتقوقع الجغرافي إلى علمية الإسلام وعالميته، وأيقظ النفوس الخامدة، وهز العقول الجامدة، وأمات النزعات الطائفية، والنعرات القبلية، والتفاخر بالآباء والأنساب والأجداد والأحساب.. إن السؤال الذي يؤرق أذهان الناس دوما هو: لماذا لم يتكرر جيل بمنزلة جيل الصحابة، أو قريبا منه؟! أين نقاط الضعف؛ وما هي مكامن العجز وأوجه القصور..؟! ترى هل أتباع القرآن والسنة ليسوا بالمستوى المطلوب، هل تدخلت عوامل تاريخية داخلية وخارجية، في بروز هذا النموذج القرآني في عهد الصحابة وعدم تكراره في الجيل المعاصر، وكان تأخير ظهوره سببا من وراء إبطاء النصر؟! لقد ظهرت حركات اسلامية كانت لها أدوار حاسمة في تاريخ الإنسان، أنارت طريق الهداية للناس، وأرشدت التجمعات البشرية إلى الخيرية والصلاح، وعمّرت المساجد بآلاف من الشباب، و(تحجبت) بفضل جهودهم الآلاف من الشابات، بدل أن يَكنّ عاشقات للفن الهابط، والمسرح العابث؛ وسفاسف الأمور، وأنقذت المجتمع من الكثير من الأدواء الإجتماعية، كالجريمة المنظمة، والجرائم الملحقة كالسرقة والفساد الإداري بكل أشكاله والإختلاس والمحسوبية، لأنها زرعت في قلب الإنسان ووعيه وضميره الهدف من الحياة والغاية من الوجود، ولكن الأمر الذي يحز في نفوس الناس أن الجيل المميز دخل تحت وصف الندرة، والنصر الحاسم تأخرت بوادره.. ومن هنا شكك الكثير من ضعاف الناس بصلاحية هذا الدين العظيم، الذي لم يعد يتحاكم إليه بني الإنسان في معظم بلاد الإسلام في هذا المفصل التاريخي بالذات.. الدين الذي يحكم بالناس وللناس ومن أجلهم.. وثارت هنا إشكالية التعارض بين القيم الإسلامية المتمثلة بالقرآن العظيم، والقيم الدخيلة التي انسابت إلى دولنا عبر الغزوات العسكرية والثقافية.. وإن حجم القوة الإعلامية التي ترافقت مع صناعة الإعلام والإعلان، والتقانة العلمية التي رافقت الغزوات العسكرية والثقافية – الانترنت نموذجا– ساهمت في زيادة حدة هذه الاشكالية في الفكر الاسلامي المعاصر.. فالتقنيات التي توسلت إليها النخبة السياسية المهيمنة والمتحكمة على مقدرات العالم، – التي تدير الصراع في المنطقة، وتنظمها، في خدمة مصالحها السياسية والاقتصادية، بناءً على أهوائها البراغماتية/المنفعية–، كانت من وراء إثارة ذلك التساؤل القديم الحديث المعاصر: لماذا تأخر المسلمون وتقدم غيرهم؟! وهكذا برز العديد من المؤلفين ممن يتصدون لهذه الظاهرة، من اسلاميين وعلمانيين ويساريين قدامى، ممن تركوا المعسكر

الشيوعي بعد افلاس منظومتهم الإشتراكية المتمثلة بالإتحاد السوفييتي المنهار تحت مطرقة التاريخ وحتمياتها، التي نظروا لها وصنفوا طروحات كثيرة حولها.. لكنها انقلبت عليهم كما انقلب السحر على الساحر.. ومن الكتاب العرب الذين نظروا لإشكالية النهضة محمد عابد الجابري في كتبه: (الخطاب العربي المعاصر.. دراسة تحليلية نقدية)، (نحن والتراث)، (نقد العقل العربي)، و(المشروع النهضوي العربي.. مراجعة نقدية) يقول في هذا الكتاب إن: (أول ما يجب التنبيه إليه هنا هو: أن المقارنة بين مشروع النهضة العربية ومشروع الحداثة الأوروبية ليست مقارنة بين طرفين يشتركان في طبيعة واحدة.. وإنما هي مقارنة بين شيئين مختلفين تماما لا يجمعهما سوى تزامنهما واحتكاكهما... وهذا أمر لا بد من أخذه بعين الإعتبار عندما نتحول إلى الإقتراب من المشروع النهضوي العربي من داخله..)، ص٥٨. ويقول أيضا في نفي المقاربة النسقية التي يجتهد بعض الكتاب والمثقفين في اثباتها وكتابة الطروحات حيالها؛ حول المماثلة بين المشروع النهضوي الأوروبي ومشاريع النهضة العربية، وفي هذا الصدد يؤكد أن هناك اختلافا جوهريا بين (مشروع الحداثة الأوروبية) و(مشروع النهضة العربية)؛ وأن هذين المشروعين على الرغم من تزامنهما واحتكاكهما المباشر: (لم يكونا ينتميان إلى (لحظة)

محمد عبده

الكواكبي

الافغاني

تاريخية واحدة، لم يكونا يعكسان نفس المرحلة من التطور. ذلك أن مرحلة (الحداثة) قد قامت في أوروبا (القرن التاسع عشر) بعد مرحلة (الأنوار) (القرن الثامن عشر) التي قامت هي نفسها بعد مرحلة (النهضة) الثانية (القرن السادس عشر) والتي سبقتها نهضة أولى (القرن الثاني عشر). ومعنى ذلك أن مشروع النهضة العربية كان عليه أن يتعامل مع (حداثة) تجاوزت (الأنوار) و(النهضة). إن ايديولوجيا الحداثة (فلسفتها، طموحاتها، شعارتها...إلخ) تقدم نفسها وتبرر وجودها بكونها البديل لفكر (الأنوار) وفكر (النهضة) بوصفها الجديد الذي جاء ليدفن القديم، هذا في حين ان مشروع النهضة العربية كان، ولا يزال، في حاجة إلى فكر النهضة، وفكر الأنوار وايديولوجيا الحداثة في آن واحد..) نفس المصدر، ص٥٩

ومن هنا وجه القصور الذي يكتنف الشعارات المطروحة على الساحة من قبل التيارات الفكرية العلمانية التي تنطلق من محاور تاريخية تجاوز عليها الزمن.

وقراءات أركون الفكرية في نقد العقل الإسلامي تقع ضمن دوائر (التجديد والنهضة)، وإن كانت تعمل في خارج الأطر الإسلامية المعروفة؛ كونه يمثل حركة استشراقية جديدة؛ لأنه يحمل نفس الأدوات وينطلق من نفس المحاور التي ابتدأها المستشرقون في دراسة الفكر الإسلامي، وإن كان في بعض الأحيان يتجه باندفاع وافتعال لم يبلغ المستشرقون شأوه، ولقد ظهرت ملامح مشروعه في كتبه (نقد العقل الإسلامي) الذي أصدره عام ١٩٨٤م، والذي يهدف من ورائه إلى مراجعة كل الموروث الإسلامي، ومن ثم عرضه على محك كل المنجزات النقدية الفكرية والتاريخية والألسنية؛ التي تمخضت من رحم الحداثة الغربية.. و(تاريخية الفكر الإسلامي)، و(أين هو الفكر الإسلامي) وغيرها.. ونكتفي بعرض عابر لبعض كتبه؛ لأن المقالة لا تسمح بدراسة وتحليل كل نتاجات هذا المفكر؛ إذ يقتضي ذلك تأليف كتاب كامل عنه..

يحاول أركون في كتابه (الإسلام، أوروبا، الغرب) تفكيك التراث الإسلامي؛ وما يقصده من عملية التفكيك هو: (أن كل الموروث الديني والعقائدي لمختلف المذاهب والطوائف ينبغي أن يتعرض لأكبر عملية غربلة من خلال تطبيق مناهج علم الألسنيات الحديثة، وعلم التاريخ الحديث وعلم الإجتماع، وعلم النفس التاريخي، وعلم الانثوبولوجيا...) (أنظر: محمد أركون (الإسلام، أوروبا، الغرب.. رهانات المعنى وإرادات الهيمنة) ترجمة واسهام: هاشم صالح، دار الساقي للنشر بيروت–لبنان، الطبعة الأولى– ١٩٩٥م، ص٢٠١)

وهنا يظهر أن اركون ينطلق من خارج الأطر التي ينبغي أن يبدأ منها مراجعاته النقدية ومطارحاته الفكرية والفلسفية..

وفي صدد التفاوت التاريخي الذي حصل بين المجتمعات الأوروبية من جهة والمجتمعات الإسلامية والعربية من جهة

أخرى يقول أركون: إن (هذا التفاوت تزايد واتسع منذ القرن السادس عشر على الأقل، حتى وصلنا إلى ما وصلنا إليه اليوم. وهكذا انغمست المجتمعات الأوروبية في الحداثة، وخلفت وراءها بقية الشعوب...) ويقصد منها الشعوب العربية والإسلامية.. (أنظر: قضايا نقد العقل الديني كيف نفهم الإسلام اليوم؟ ترجمة وتعليق هاشم صالح، دار الطليعة للطباعة والنشر– بيروت، الطبعة الأولى ١٩٩٨م، ص٩٥.)

ويدلل أركون على عقم المحاولات التي قام بها بعض المثقفين، في قطع الثقافة الغربية عن سياقها الأولي، وزرعها في السياق العربي الإسلامي: (فقد حاول مثقفو النهضة أن يطبقوا على تاريخ المجتمعات الإسلامية قطعا متبعثرة ومقطوعة عن سياقها من المنهجيات الأوروبية التي ظهرت أثناء الحداثة الكلاسيكية لأوروبا (أي: في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر). فبعد أن جاءت البعثات من مصر ولبنان وغيرهما إلى أوروبا، انبهر المثقفون العرب والمسلمون بهذه الحداثة، فنقلوا منها إلى لغاتهم وبلادهم ما استطاعوا نقله أو فهمه أو استيعابه. ولكنهم قطعوا فكر الحداثة الأوروبية عن سياقه الطبيعي إذ زرعوه في سياق آخر: هو السياق العربي– الإسلامي...) ويضيف قائلا:(لقد نقلوا أساسا المنهجية التاريخية كما كانت سائدة في القرن التاسع عشر في جامعات السربون وبرلين واكسفورد...إلخ وهي المنهجية الفيلولوجية– التاريخية المفيدة في تحقيق النصوص والمخطوطات القديمة، ولكن

الزمن تجاوزها الآن. وراح المستشرقون يصفقون لنجاحات تلامذتهم الكبار بعد أن عادوا إلى أوطانهم للتدريس في جامعاتهم ونقل العلم الأوروبي إليها.. أقصد بالتلامذة هنا شخصيات من أمثال طه حسين، وزكي مبارك، وبشر فارس. قد قلدوا منهجيات أساتذتهم المستشرقين وحاولوا ترجمتها وتطبيقها على الأدب العربي والتراث الإسلامي... هذا ما حصل في عصر النهضة الممتد من القرن التاسع عشر وحتى منتصف هذا القرن تقريبا..) نفس المصدر السابق، محمد أركون، ص١٧١–١٧٢.

واهتم باشكالية النهضة والتحديث الباحث اسماعيل فادي في كتابه: (الخطاب العربي المعاصر.. قراءة نقدية في مفاهيم النهضة والتقدم والحداثة) الذي تناول فيه بالدراسة والتحليل نماذج من الخطاب العربي المعاصر من الحقبة التاريخية ما بين (١٩٧٨–١٩٨٧م)، حاول من خلال قراءته النقدية لمفاهيم (التقدم والحداثة) بعملية تفكيك هذه المفاهيم؛ والتدليل على عقم مضامينها، وعن بعض الآثار السلبية التي نجمت عن تطبيقها في الدول العربية الإسلامية قبل الإستقلال وبعدها.. ولقد أومأ الكتاب إلى ان تجربة (الحداثة والتقدم) في الوطن العربي والإسلامي كانت تجربة تطبيق قسري، وتقليد مبتسر، واستهلاك ايديولوجي لم يرافقها أي إصلاح فكري أو ثقافي.. نظراً لأن مفاهيم (التقدم والحداثة) لا يمكن فصلها عن سياقاتها التاريخية وتجذراتها الأولية، وظروف تشكلها وتبلورها في الواقع الذي تمخض عنها في البداية..

ويساهم د. محمد جابر الأنصاري في فهم إشكالية النهضة في كتابه: (تجديد النهضة باكتشاف الذات ونقدها.. دعوة لتشخيص الموروث المجتمعي العربي، وإعادة تأسيس الثقافة العربية لعصر تنوير جديد).. وهناك دراسات أخرى ساهمت في فهم إشكالية النهضة والتخلف في الفكر العلماني منها: الثابت والمتحول لأدونيس، والايديولوجية الإنقلابية لنديم البيطار، وتجديد العقل العربي لزكي نجيب محمود، ونقد العقل العربي للجابري...إلخ

ونكتفي بالإشارة إلى مساهمة أخرى شاركت في إضاءة قضايا النهضة والتنوير، وهي تمثل مجموعة مقالات منشورة جمعت في كتاب واحد تحت عنوان: (قضايا التنوير والنهضة في الفكر العربي المعاصر)، من سلسلة كتب المستقبل العربي، ويضم الكتاب ثلاثة عشر فصلا لعدد من المفكرين البارزين في الوطن العربي.. ويقع في ثلاثة اقسام رئيسية. الأول: يبحث في فكر التنوير وبالتالي يستعرض مفاهيم التنوير والحداثة والتجديد، كما تبلورت في الفكر الغربي الحديث، وكما يجري تداولها في الفكر العربي المعاصر.. بالإضافة إلى وجهات نظر نقدية لهذه المفاهيم، سواء في أصولها الغربية أو في استخداماتها العربية، والثاني: في الأصالة والمعاصرة، يستعيد النزعة التوفيقية بين « الغرب» و« الإسلام» منذ بدأت العلاقات الحديثة بينهما عبر صدمة النهضة وصدمة الإستعمار معا، وبالتالي يبحث في الأصالة والمعاصرة؛ لتحديد الواقع والممكن.. أما الثالث: فهو ينظر إلى المستقبل، ويبحث في تحدي الوسائل التي يمكن أن تقود نحو النهضة؛ كيف يمكن للمواطن الفرد أن يساهم في النهضة؟ وكيف يمكن للأمة كلها أن تتمكن من تعبئة قدراتها وإمكانياتها لتحقيق النهضة؟ (أنظر: قضايا التنوير والنهضة في الفكر العربي المعاصر، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت–لبنان، الطبعة الأولى ١٩٩٩م، ص١٥.)

ومن هذه الطروحات التي تهتم بقضية النهضة والتنوير؛ نذكر منها: (الفكر العربي المعاصر وإشكالية الحداثة) للباحث بومدين

بوزيد، و(ملاحظات حول الحداثة في الخطاب العربي المعاصر) بقلم د. عبدالله ساعف، و(العقل والتجديد) للمفكر د. لؤي صافي، و(حول مفهوم التنوير: نظرة نقدية لتيار أساسي من تيارات الثقافة العربية) للمنظر جلال أمين، و(أزمة التنوير في المشروع الثقافي العربي المعاصر–إشكالية نقد العقل نموذجاً) للمفكر السيد ولد أباه، و(نقد تاريخانية التفكير العربي المعاصر: تفكيك مفاهيم) للدكتور سيار الجميل، و(ظاهرة التحديث في المجتمع العربي: محاولة لتطوير نموذج نظري) للمفكر مصطفى عمر، و(الباعث الأصولي.. ومشروع الحداثة) لفريدمان بوتنر أستاذ العلوم السياسية؛ ومدير معهد سياسات الشرق الأدنى، جامعة برلين، و(التراث وإشكالية النهضة في الخطاب العربي المعاصر) عبد لمجيد بو قربة، و(من أصولية إلى أخرى! الحداثة المعطوبة) للباحث عمار بلحسن، و(خواطر حول المشروع العربي النهضوي المنشود) للكاتب برهان زريق، و(نحو نهضة عربية ثانية: الضرورة والمتطلبات) للمفكر الإقتصادي إسماعيل صبري.

وهناك الكثير من المفكرين العرب المعاصرين أمثال: زكي نجيب محمود، وبرهان غليون، وهشام شرابي، وسمير امين، وعبدالله العروي، والطيب التيزيني، وحسين مروة، وحسن حنفي، ومحمد عابد الجابري، ومحمد اركون.. الذين نظروا لإشكالية النهضة والتخلف والتراث والمعاصرة، وطرحوا مشروعات فكرية وثقافية على شكل دراسات ودوريات.. بغض النظر عن مضامينها المعرفية والفلسفية التي تحتويها.. ونكتفي بذكر أسمائهم دون عرض آرائهم وطروحاتهم في الموضوعات التي نقوم بدراستها، وإن كانت الدراسة لم تخل من إشارات تمثل إتجاهات هؤلاء المفكرين الذين نوهنا بأسماء بعضهم.. إلا أنها في الأخير تلتزم اساساً بإضاءة مفهوم النهضة في الفكر الإسلامي..

وقبل أن ندخل في عرض محاور النهضة من وجهة نظر بعض المفكرين الإسلاميين، نود أن نعرض للمراحل التاريخية التي أدت إلى الحداثة كنموذج يمكن أن نحدد من خلاله الجهود الغربية التي بذلت على طريق النهضة والإقلاع الحضاري، فهناك ثلاث مراحل مرّ بها التاريخ الغربي/ الأوروبي، أول هذه المراحل هي مرحلة: الإصلاح الديني وعصر النهضة:

إن بدايات عصر النهضة تتحدد في القرنين الخامس عشر والسادس عشر، والإصلاح الديني هذا كان يمثل قطيعة معرفية لمجمل التراكمات الفكرية والموروثات التاريخية التي خلفتها العصور الوسطى، بكل ما انطوت عليها من جمود ثقافي وركود فكري، واستبداد ديني، وقمع سياسي، وغيرها من أشكال الإقطاع والظلم الإجتماعي..

لقد « طرأ انقسام على كنيسة أوروبا الغربية في أوائل القرن السادس عشر، ولم يقدر لهذا الإنقسام أن يلتئم قط، فقد كانت في أوروبا حتى ذلك العهد، عقيدة دينية واحدة، هي عقيدة الكنيسة الرومانية (The Roman Catholic Church)، وندر أن نازع أحدٌ سلطانها. ولكن الكنيسة لم تلبث بحلول عام (١٥٠٠) تقريبا أن انحدرت إلى حالة شديدة من التقاسم، حتى بدأ أناس يقترحون العمل على إجراء إصلاح ديني شامل، بل بلغ بهم الأمر، إلى حد التشكيك في حق الكنيسة في أن توجد على الإطلاق، وكانت النتيجة قيام حركة قوية للإصلاح (Reform) الديني، تطورت إلى تمرد وثورة على نطاق واسع. وكان من رواد حركة الإصلاح الديني مارتن لوثر (١٤٨٨– ١٥٤٦م)، وجون كالفين (١٥٠٩– ١٥٤٦م) وكامبن (١٣٧٩– ١٤٧١م) وتوماس مونزر (١٤٩٠– ١٥٢٥م). أنظر: موسوعة (المعرفة) د.محمد فؤاد ابراهيم وآخرون، شركة انماء للنشر والتسويق/ بيروت– لبنان، ١٩٩٧.

وكانت حركات الإصلاح تستهدف أولا وتحديداً مركز السلطة وبؤرة التسلط: الكنيسة: ويمكن إيجاز تلك الأفكار في النقاط الآتية: (رفض الوساطة الدينية بين الله والإنسان، والقول بعلاقة دون وسيط)، (رفض التعدد في المصادر الدينية، والقول بالمصدر الواحد)، (رفض الوساطة التفسيرية واحتكار التأويل للنص الديني الذي كانت تتفرد به الكنيسة، والقول بحرية الفهم وقدرة العقل الفردي على التعامل المباشر مع النص الديني)، رفض التعارض الذي أقامته التعاليم الكنسية بين مطالب الجسد ومتطلبات الروح، والدعوة إلى الإعتراف برغبات الإنسان) (أنظر: عزالدين عبدالمولى، في الرؤية الغربية لتاريخ الحداثة، اسلامية المعرفة، السنةالأولى، العدد (الرابع)، ١٤١٦هـ–١٩٩٦م، ص٩٤.)

أما (عصر النهضة) فكان يمثل نقطة التحول، ويشكل حلقة الوصل للدخول إلى (عصر الأنوار) الذي بشر بولادة (عصر الحداثة)، وكما تعددت حركات الإصلاح الديني، فإن عصر النهضة أيضا عرف التعدد، وعبر عن نفسه في أشكال فلسفية وسياسية ودينية وعلمية..

مثل عصر النهضة الحد الفاصل في تكوين الوعي الأوروبي بين القديم والجديد، ونقل مستوى المعرفة: من الدين مصدراً مباشراً للحقيقة العلمية إلى التجربة الإنسانية والجهد العقلي أداة لبناء هذه الحقيقة، وتمخض عن عصر النهضة، ميلاد (عصر الأنوار) الذي شكل في التاريخ الأوروبي حلقة التأسيس الفكري والفلسفي والعملي للعصر الحديث، والتجاوز الكيفي لحقبة من التخلف الشامل، تميزت بوجه خاص بتسلط الكنيسة واستبداد الملكيات المطلقة وهيمنة الإقطاع .. وأول سمات هذا العصر حاكمية العقل

وسريان قوانينه وشروطه على مختلف المجالات، ومن المراجع الأساسية للأفكار التي أطرت عصر التنوير وهيمنت في تلك الحقبة وما بعدها نذكر ديكارت وتأملاته وخطابه في المنهج، وفرانسيس بيكون وآلته الجديدة، وسبينوزا ورسالته في الأخلاق والسياسة، كما يمكن أن نذكر نيوتن وآليته، ولوك وتجريبيته، وكانط وعقلانيته النقدية.. (أنظر: نفس المصدر السابق، بتصرف، ص ٩٨) وكانت تلك مقدمات لظهور الثورة الصناعية؛ نتيجة لتراكم الخبرة المعرفية التي مهدت للإكتشافات العلمية، وتمخض عن عصر الثورة الصناعية (عصر الحداثة) الذي يمثل مرحلة متقدمة من المراحل التطورية في أوروبا، كما يعد أحد انجازات الفكر الغربي، الذي تولد عبر التحولات التي جرت في أوروبا/الغرب منذ القرن الخامس عشر..

نبدأ في هذا السياق إلى تحديد السؤال النهضوي الأول الذي طرح في بداية هذا القرن وهو: لماذا تأخر المسلمون وتقدم غيرهم؟! .. والتي أجاب فيها المفكرون الإصلاحيون إجابات طبقا للشروط التاريخية والظروف المرحلية، التي مرت بها تلك الفئات الإصلاحية..

والسؤال المطروح هو: هل يفترض السياق الحضاري أن نعود أدراجنا إلى طرح نفس الإشكاليات؛ أو بالأحرى إعادة استحضار السؤال النهضوي الأول في التخلف والنهضة.. أم أننا بحاجة إلى أسئلة أخرى وإجابات مغايرة تستجيب لحاجات المرحلة الراهنة؟!.. إن إشكالية النهضة والتخلف لا تزال يعاد إنتاجها بنفس الأشكال التاريخية وإن اختلفت المسميات، فثنائيات: التخلف والنهضة، والتقدم والتأخر، والأصالة والمعاصرة...إلخ، ما زالت ماثلة في الأدبيات الفكرية والثقافية في المجتمعات العربية والإسلامية.. أما الإجابات فتتحدد وفقا للإتجاهات الفكرية والايديولوجية للفئات التي اشتغلت في حقل النهضة والتحديث..

القضايا الفكرية الكبرى التي شغلت المجتمعات العربية والإسلامية:

إن القضايا الفكرية التي شغلت الأدبيات العربية والإسلامية في العقود القليلة الماضية وصولا إلى منتصف عقد الثمانينات في قراءة سريعة للأدبيات المختلفة هي:

- الوحدة الشاملة أو الجزئية في مقابل التجزئة.
- المساواة والعدالة الإجتماعية في مواجهة الإستغلال.
- الهوية أو الأصالة الحضارية والتوفيق مع العصر والحداثة في مواجهة التغريب.
- التنمية والتحديث في مواجهة التخلف والتأخر والتبعية الإقتصادية والسياسية.
- الإستقلال والتحرر لوطني ومكافحة الإستعمار بكافة أشكاله.

راجع: الخطاب العربي المعاصر.. قراءة نقدية في مفاهيم النهضة والتقدم والحداثة)، فادي إسماعيل، ص٣١.

قراءة في الخطاب النهضوي العربي-الإسلامي:

إن النموذجين الحضاريين لأسس التقدم والنهضة هما النموذج الغربي والنموذج العربي الإسلامي، النموذج الوافد غزواً والنموذج الموروث أو الأصيل. أمّا ما اصطلح على تسميته بالأنموذج التوفيقي للتقدم والنهضة فما هو إلا نظريات لا تعكس إلا حركة ذهنية لدى المثقفين، ولم يكن لها تجسيدات حقيقية في الواقع المتغير، فالمسار التاريخي الذي سارت عليه الأمور منذ بداية عصر النهضة قبل مائة سنة أو اكثر أوصلنا إلى نقطة راهنة لا يوجد فيها تخيير وتوفيق، فنحن اليوم لا نسأل عما نختار من هذا النموذج أو ذاك من الموروث والوافد، أو كما يقول طارق البشري: (كنا في الماضي نقف على ارض الموروث ونتحاور فيما يصلح لها من حضارة الغرب وأدواته لندخله عليها، ثم صرنا أو صارت كثرتنا تقف على أرض الوافد أو أرض خليط، ونتحدث عن التراث بضمير الغائب ونتحاور فيما نستحضره فيه، نحن نتساءل الآن عما نستدعي من التراث بعد ان كان آباؤنا يتساءلون عما يأخذون من الوافد..) (أنظر: طارق البشري (نحن بين الموروث والوافد)، في: اشكالية العلوم الإجتماعية في الوطن العربي، بيروت: دار التنوير ١٩٨٤م ص٣٥٨. في: الخطاب العربي المعاصر قراءة نقدية في مفاهيم النهضة والتقدم والحداثة. ص٣٤.)

لقد استطاعت المدنية الغربية بأنظمتها الفكرية والثقافية اختراق الفضاءات الإسلامية، في محاولة لطمس الهوية الثقافية، والانتماءات العقدية، ونبذ الموروثات التاريخية، وإلغاء الإختلافات الحضارية، وتدشين القطيعة مع الذاكرة التاريخية الجمعية، بهدف تكريس حالة الإستتباع الفكري والإستلحاق الحضاري، التي تسهل مهمة التحكم بالمقدرات والموارد الإقتصادية للدول العربية والإسلامية..

(أول من وقعت عليه مسؤولية مواجهة الإقتحام الأوروبي كانت السلطة العثمانية وأجهزتها، حدث هذا في مصر، في الجزائر وغيرها، ولكن سرعان ما انهارت مؤسسات السلطة المركزية بمختلف أشكالها السياسية والعسكرية والإقتصادية. إذ أن عوامل الإختراق التدريجي والضعف المتزايد كانت قد فعلت فعلها في بنية السلطة حيث نمت عوامل التفكك والتفسخ الداخلي..) (أنظر: الخطاب العربي المعاصر قراءة نقدية في مفاهيم النهضة والتقدم والحداثة. المصدر السابق، ص٩١)

تمخض عن سيطرة النموذج الغربي الحديث في المجتمعات الإسلامية صراع فكري وحضاري.. لقد تركزت خطوط المقاومة أساسا عبر حركات إسلامية ذات طابع جماهيري..(فمنذ غزوة نابليون

لمصر (١٧٨٩م) ثم احتلال الجزائر (١٨٣٠م) كانت المجتمعات الأهلية تقاتل في مقاومة مستميتة، فمن انتفاضتي القاهرة التي لعب فيها الأزهر كمؤسسة وكقيادة دينية متقاطعة ومنخرطة في نسيج المجتمع الدور المركزي في قيادة المقاومة الإسلامية الشعبية ضد الحملة الفرنسية، ثم إلى الجزائر حيث شكلت الحركات الشعبية خط الدفاع الأساسي الذي منع الفرنسيين من تنفيذ استراتيجيتهم الإبادية، نذكر في هذا السياق حركة عبدالقادر الجزائري مع دخول الفرنسيين، ثم ثورة (١٨٧١م) بقيادة الشيخ المقراني ووراءه الطريقة الصوفية، نذكر ايضا الحركة السنوسية التي اسسها محمد علي السنوسي (١٧٨٧–١٨٦٠) وانتشرت في أنحاء كثيرة من الشمال الأفريقي، ثم خلفه ابنه (محمد المهدي) الذي بلغت السنوسية في عهده أوج انتشارها، وحيث اشتعلت الثورة ضد الانكليز في السودان (١٨٨٥م) مهددة بالإنتشار في العالم الإسلامي.. (الخطاب العربي المعاصر قراءة نقدية في مفاهيم النهضة والتقدم والحداثة. المصدر السابق، ص٩٢.)

لقد رفضت الدول العربية الإسلامية النماذج التحديثية التي بشرت بها الدول الغربية وذلك: (لأنها شكلت تهديداً لمصير الجماعة ووجودها بحد ذاتها، فاستجابة المغلوب للغلبة هي الرفض من موقع الضعف، بإعتبار ان الإقتباس الحضاري من موقع القوة لا ضرر منه، أما الإقتباس من موقع الضعف فهو غزو لبنية اجتماعية واهنة بقصد تفكيكها وإعادة تركيبها وفقا للنموذج الأرقى..) (أنظر: الخطاب العربي المعاصر قراءة نقدية في مفاهيم النهضة والتقدم والحداثة. المصدر السابق، ص٩٩)

المشروع النهضوي العربي في القرن التاسع عشر:

المرحلة التأسيسة تبتدأ بمحاولة محمد علي باشا ومشروعه السياسي والنهضوي، لقد أدرك محمد علي أهمية التعليم في إحداث نهضة شاملة في البلاد، على الرغم من كونه أميا، وان التعليم الموجود آنذاك في الأزهر لا يستطيع أن يتكفل بإحداث نهضة حضارية، وإن كانت هناك بوادر للنهضة العلمية في مصر قبيل الحملة الفرنسية... لقد نظر محمد علي إلى التعليم نظرة نفعية، ارتبطت برغباته في تنفيذ مآربه الخاصة في الإنفصال عن السلطان العثماني، وكان الجيش هو الأداة الأساسية لتحقيق هذا الهدف فربط ربطا وثيقا بين التعليم وحاجات الجيش؛ لذا فلم يكن من الغريب أن يكون أول ما يقوم محمد علي بإنشائه، هو المدارس الحربية، تليها مدرسة الطب، ثم مدرسة الترجمة.

أنظر: فلسفة المشروع الحضاري، ص٧٢–٧٣.

أما رفاعة رافع الطهطاوي (١٢١٦–١٢٩٠هـ/١٨٠١–١٩٧٣م) فهو الجانب الآخر لصورة النهضة في جانبها الثقافي، فمع الطهطاوي تؤرخ بداية الفكر التنويري العربي المتأثر بالتقدم الأوروبي أو كما يقول معن زيادة: (هو المفكر الذي وضع المعالم الأولى لمركب ثقافي جديد؛ يجمع ما بين الثقافة العربية والفكر الحديث.. هذا المركب الثقافي كان وما زال أساسا لكثير من المشاريع التي طرحها مفكرون ورجال إصلاح سياسي واجتماعي.. المشروع الذي طرحه الطهطاوي يهدف إلى إقامة توفيق نظري وعملي بين الحياة العصرية والقيم التراثية..) راجع: معن زيادة (المعالم الأولى للمشروع النهضوي العربي في القرن التاسع عشر) مجلة (الوحدة) في الخطاب العربي المعاصر.. قراءة نقدية في مفاهيم النهضة والتقدم والحداثة)، فادي إسماعيل، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع– بيروت، الطبعة الثانية، ١٤١٣هـ–١٩٩٣م، ص٤٨.

التيار الليبرالي- التغريبي:

نادى باحتذاء النموذج الحداثي الغربي– العلماني، الذي يجعل من الدين دينا كنسيا، أي: مجرد علاقة بين الإنسان وخالقه، ويضع العقل مكان النص، والعلم مكان الفقه، وقد مثل هذا الإتجاه فرح أنطون، وشبلي شميل، وسلامة موسى، واسماعيل مظهر، وأحمد لطفي السيد..

إن صفوت حاتم يصنف المدارس التي تبنت الفكر الليبرالي في مطلع القرن العشرين إلى ثلاث مدارس:

١– مدرسة العلمانية الإسلامية: وشعارها التحديث والعلمنة، ومن روادها: محمد حسين هيكل، طه حسين، لطفي السيد وآخرون.

٢– المدرسة المنادية بالتغريب

والرافضة لروح التوفيق الإسلامي وهي أكثر جذرية من الأولى. ومن روادها: سلامة موسى، شبلي شميل، وفرح أنطون.

٣- المدرسة الثالثة أو المدرسة القومية ويمثلها: ساطع الحصري، وقسطنين زريق. (راجع: صفوت حاتم (الليبرالية العربية) مجلة (الوحدة) السنة (١)، العدد (٣) كانون الأول ١٩٨٤م، ص٣٤. في الخطاب العربي المعاصر.. قراءة نقدية في مفاهيم النهضة والتقدم والحداثة)، ص٥١-٥٢.

إن مفكري الليبرالية العرب بتأثير من منطلقاتهم ومنهجهم الليبرالي راحوا يطرحون قضيتهم على مدى نصف قرن؛ كما طرحت أوروبا شعارات: النهضة والتحديث التي طرحها رواد المدرسة الأولى، أو شعارات التقنية والتنوير الغربي للعقول الشرقية؛ والمبادئ الأوروبية بديلا عن الثقافة الزراعية، وهي شعارات أطلقها رواد المدرسة الثانية أو شعارات الوحدة العربية التي أطلقها رواد المدرسة الثالثة. نفس المصدر السابق، ص٥٢

إن طرح هؤلاء جميعا لم ينج من ثغرة الفاعلية التلقائية المتضمنة في روح المنهج الليبرالي وقانونه الطبيعي. لقد رأوا في شعارات (البرلمانية التمثيلية والتعليم)، وتطوير وضع المرأة، والأخذ بالقيم الفكرية والسلوكية؛ التي اتبعها الغرب، والأخذ بمبدأ التصنيع، أن هذه السبل تؤدي (تلقائيا) إلى تطور المجتمع، وتنقلنا (تلقائيا) إلى تطور وتقدم مشابه لأوروبا) راجع: صفوت حاتم (الليبرالية العربية) الوحدة، السنة (١)، العدد (٣) كانون الأول ١٩٨٤م، ص٣٧.

وهكذا تؤدي النهضة والتحديث والإصلاح عملها تلقائيا وتفضي إلى التقدم. وهكذا أصبح شعار النهضة فاقداً للمضمون، إذا لم يتم تحديد القوانين الإجتماعية التي تتحكم بعملية النهضة أي: القوى النهضوية ومعوقات النهضة، وقد يكون من أسباب ذلك الإغفال والتجاهل للعملية النهضوية المعقدة هو أن دعاة المنهج الليبرالي لم يستطيعوا إستيعاب الطابع التاريخي للمنهج الليبرالي ذاته، فالمنهج في علم الإجتماع: هو مجموعة القوانين التي تحدد منطق التغيير الإجتماعي وقواه ومضمونه في لحظة تاريخية معينة.

إذاً كان المصلحون النهضويون عاجزين عن رؤية تاريخية؛ وبالتالي نسبية وخصوصية المنهج الليبرالي، وارتباطه بحقبة معينة في مجتمعات معينة، مما يفقده الشمولية والتعميم. كذلك كانوا عاجزين عن رؤية الخلفية الايديولوجية للمنهج العلمي الذي أرسته الليبرالية، ولذلك فلم يستطيعوا إدراك أنه حين ننقل منهجا ما إلى واقع مغاير للواقع الذي نما فيه، فإننا نتجاهل كل الخلفيات الثقافية والإجتماعية التي تحكمت بوجوده، وهذا ما سيعود إلى أخطاء فادحة في أي حكم يتم إطلاقه على الواقع المعاش. راجع: فادي اسماعيل (الخطاب العربي المعاصر.. قراءة نقدية في مفاهيم النهضة والتقدم والحداثة)، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشروالتوزيع، بيروت-لبنان، الطبعة الثانية ١٤١٣هـ-١٩٩٣م، ص٥٢-٥٣.

ولقد شهد العالم الإسلامي (حركات اصلاحية) مثلت أدواراً حاسمة في عمليات النهضة والإصلاح، ففي الجزيرة العربية ظهرت حركة اصلاحية عرفت بالحركة الوهابية على يد محمد عبد الوهاب منذ ١٧٤٤م، وفي السودان ظهرت الحركة المهدية (١٨٨١- ١٨٩٨م)، وفي ليبيا برزت الحركة السنوسية (١٩١٢-١٩٢٥م)، وتمثلت جهود هذه الحركات الإصلاحية في محاربة البدع، ومكافحة الإستعمار ما وجدت لذلك سبيلا، ولكنها لم تستطع أن تحقق نهضة فكرية شاملة في كافة الأطر الإجتماعية..

التيار السلفي- الإصلاحي: أكد على ضرورة الرجوع إلى الكتاب والسنة، ودعا إلى العودة بالعقيدة الإسلامية إلى أصولها الصافية، وساهم في تنقية مفهوم التوحيد مما علق به من شوائب البدع والخرافات، واعتمد منهج أهل السنة والجماعة في تحقيق هذه العودة المنشودة.

الأفكار الإصلاحية التي مثلها الشيخ (محمد بن عبد الوهاب): (١١١٥-١٢٠٦هـ) (١٧٠٣-١٧٩١م)

قامت الكثير من حركات النهضة في العالم الإسلامي، منها الحركة الوهابية التي انبثقت من قلب الجزيرة العربية، على يد الشيخ محمد بن عبد الوهاب في منتصف القرن الثامن عشر، مستوحية تراث ابن تيمية، وقد تضمنت دعوتها:

- فتح باب الإجتهاد بعد أن ظل مغلقا منذ سقوط بغداد سنة ٦٥٦هـ.
- وأكدت على ضرورة الرجوع إلى الكتاب والسنة، وعدم قبول أي أمر في العقيدة ما لم يستند إلى دليل مباشر وواضح منهما.
- القضاء على البدع والخرافات التي كانت منشرة آنذاك بسبب الجهل والتخلف.
- لقد عملت هذه الدعوة على إيقاظ الأمة الإسلامية فكريا بعد أن رانت عليها رواسب التخلف والخمول والتقليد الأعمى.
- العناية بتعليم العامة وتثقيفهم، وتفتيح أذهان المثقفين منهم، ولفت أنظارهم إلى البحث عن الدليل.

وفي المغرب العربي (الجزائر) ظهر محمد بن علي السنوسي الخطابي (١٢٠٢هـ-١٨٨٧م) لقد دعا السنوسي إلى التمسك بالكتاب والسنة الصحيحة، وفهم الإسلام على أساسهما بعيداً عن البدع والتعصب المذهبي، ودعا إلى تحريك العقل الإجتهادي، لتجديد الفكر الفقهي الذي لا يقف عند العصور الماضية فحسب، بل يتعداه إلى معالجة مشاكل المسلمين في زمانه.. (راجع: الإسلام في القرن العشرين للعقاد، ص٨١. في الفكر الإسلامي.. تقويمه وتجديده، د. محسن عبدالحميد، دار الأنبار، ط(١) ١٤٠٨هـ-١٩٨٧م، ص٨٤.) ❐